الحياة العلمية فى مصر والشام

٥٢١ — ٦٤٨ هـ (١١٢٧ — ١٢٥٠ م)

فى سنة ٥٢١ هـ، تولى عماد الدين زنكى بن آق سنقر إمارة الموصل من قبل السلطان السلجوقى الذى كانت له الكلمة العليا فى البلاد التى تعترف بخلافة العباسيين . وبدأت بولاية زنكى على الموصل حركة إحياء سياسىّ واجتماعىّ وثقافىّ فى مناطق الجزيرة العراقية والشام التى كانت حتى ذلك التاريخ مفككة الأوصال مشتتة الكلمة . ثم لم تلبث هذه الحركة الإحيائية أن انتقلت إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية ، سنة ٥٦٤ هـ ، أمام جيوش السلطان نور الدّين محمود بن زنكى . واستمرت هذه الحركة على نشاطها فى البلدين المتحدين منذ ذلك التاريخ حتى سقوط الدولة الأيوبية فى مصر ، سنة ٦٤٨ هـ، لتخلفها دولة المماليك البحرية التى بدأت عهداً جديداً من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية يختلف فى بعض مظاهره عن العصر الأيوبى ويتفق معه فى بعض آخر .

ومن ثَمّ كان تحديد بحثنا عن الحياة العلمية فى مصر والشام مرتبطا بهذين التاريخين : ٥٢١ — ٦٤٨ هـ ، أى شاملا للعصر الذى يبدأ بولاية عماد الدين زنكى إمارة الموصل وينتهى بسقوط الدولة الأيوبية فى مصر .

* * *

وقد شهدت هذه الحقبة التى نتحدث عنها تغيرات رئيسية هامة ، كان من

بينها سلسلة الحروب التى دارت رحاها — فى معظم مراحلها — بمصر والشام، وهى الحروب التى عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية. كما كان منها تلك الانقلابات السياسية والثقافية التى شهدتها هاتان المنطقتان نتيجة لتدهور سلطان الفاطميين الاسماعيليين وانتعاش النفوذ السنّى فى ظل حكم السلاجقة وأتباعهم بالشام، ثم فى ظل الأيوبيين فى مصر والشام جميعاً.

وقد جاهد زنكى منذ تولى شئون الموصل لوضع حد للخلافات السياسية الإقطاعية التى مزقت شمل الشام والجزيرة العراقية، فنجح بحروبه المتتابعة فى إيجاد نوع من الاتحاد شمل جزءاً كبيراً من هذه البلاد وأخضعها لسلطانه. ثم جاء بعده ابنه نور الدين محمود، ٥٤١، فبدأ من حيث انتهى أبوه، ونجح فى توحيد الشام والجزيرة جميعاً باستثناء المناطق التى كانت فى أيدى الصليبيين[1]؛ ثم مدّ نفوذه إلى مصر حيث نجح قائده أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين الأيوبى، بعد محاولات ثلاث، فى إخضاعها لسلطانه. وفى مصر، بعد وفاة شيركوه، ظهر صلاح الدين وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمى الشيعى، وقائداً لجيوش صاحب الشام نور الدين محمود السلطان السنّى. ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية أن انهارت، فزال بانهيارها آخر ظل للنشاط الاسماعيلى عن مصر، واصطبغت البلاد منذئذ بالصبغة السنّيّة فى مذهبها الدينى وفى نظامها السياسى.

لكن الوحدة التى نجح هؤلاء الرجال الثلاثة فى تحقيقها بين مصر والشام لم تسلم من الأخطار التى تهددتها فى شكل الحملات الصليبية المتتابعة لتأكيد سلطان أوربا على الأراضى المقدسة، وللقضاء على قوة مصر التى حملت العبء الأكبر فى مقاومة هذه الحملات الصليبية. وكان لاتحاد القوى فى مصر

---

(١) كانت إمارة الموصل وما تبعها خاضعة لسيف الدين غازى بن زنكى ولكن سياسته العامة، وسياسة من جاء بعده، كانت متفقة تمام الاتفاق مع سياسة نور الدين ومتعاونة معها.

والشام ، برغم بعض المنازعات الداخلية ، فضل كبير في فشل هذه الحملات التي لم تحقق من أهدافها ، عندئذ ، إلا القليل .

* * *

وفي حديثنا عن الحياة العلمية في هذه الحقبة يحسن أن نبدأ بما ذكره ابن جبير في « الرحلة » من أنه رأى في دمشق وحدها ، أثناء زيارته لها ، نحو عشرين مدرسة ، كما رأى في حلب خمس مدارس[1] . ويذكر ابن الشحنة في كتابه « الدر المنتخب » من مدارس حلب عدداً يجاوز الخمسين ، أنشئت جميعاً بين سنتي ٥١٦ ، ٦٦٥ ؛ ودمشق وحلب العاصمتان الرئيسيتان للشام في هذه الحقبة من التاريخ . وهذان المثلان يكفيان في الدلالة على مدى الاهتمام بالإحياء العلمي في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، غير أنه يحسن أن نضيف إلى هذا أن عدداً كبيراً من الزوايا والمساجد كان يؤدي وظيفة المدرسة في هذا العصر على نطاق واسع أيضاً[2] .

وقد أنشئت أول مدرسة في دمشق في عهد الأتابك « طغتكين » الذي تولى إمارتها سنة ٤٩٧ هـ . لكن دمشق لم تفز بالشهرة الفائقة التي اكتسبتها في ميدان النشاط العلمي إلا منذ عهد السلطان نور الدين محمود الذي اتخذها عاصمة الملك سنة ٥٤٩ . ولعل السر في هذا أن المدة التي انقضت بين تأسيس أول مدرسة بدمشق واستيلاء نور الدين عليها ، حفلت بالنزاع المتصل بين أمراء المسلمين بالشام ، أو بينهم وبين الفرنج والصليبيين ؛ وهو النزاع المرير

---

(١) قام ابن جبير برحلات ثلاث من الأندلس إلى المشرق : الأولى سنة ٥٧٨ ، وهي التي كتب بعدها « الرحلة » ، والثانية بين سنتي ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، وفي الثالثة استقر بالإسكندرية حيث توفي سنة ٦١٤ هـ .

(٢) يقول ابن جبير في « الرحلة » : « وبالجامع المكرم (يعني بدمشق) عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس » . (الرحلة : ٢٦٦) ويقول : « ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب هي محاضر لمعلمي الصبيان » . (الرحلة : ٢٧١) . ويقول : « وفيه حلقات التدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع » . (الرحلة : ٢٧٢) .

الذى لم يدع فرصة لأى إصلاح علمىّ أو اجتماعى ، رغم توفر النية لدى بعض الأمراء .

والمدرسة كمركز للنشاط العلمىّ السنّى تدين بوجودها لأسرة السلاجقة. ومن المسلّم به أن المدرسة ظهرت فى صور مختلفة قبل ظهور السلاجقة بزمن فى منطقة خراسان ، وفى غيرها من الأقاليم الشرقية بصفة عامة[1] ، إلا أن أول من أنشأ المدرسة بنظامها الكامل الذى عرفت به فى بلاد العراق والشام ومصر كان نظام الملك وزير السلاجقة المتوفى سنة ٤٨٥ ، وهو مؤسس المدارس النظامية المعروفة[2] . وقد ذكرنا من قبل أن أول مدرسة أنشئت فى دمشق سنة ٤٩٧[3] .

* * *

ولم يكن ظهور المدارس فى مصر والشام بهذه الكثرة الملحوظة فى العصر الذى نتحدث عنه إلا مظهراً من مظاهر رد الفعل لتدهور الدعاية الشيعيّة الاسماعيلية التى فقدت سيطرتها أولا فى بلاد الشام، لانحسار سلطة الفاطميين عنها ، ثم انهارت أخيراً فى مصر بعد سقوط خلافتها الفاطمية أمام جيوش الفتح النّورى ، ثم ، من بعده ، بجهود صلاح الدين .

والاستعراض التفصيلى للمواد التى كانت تدرس فى هذه المدارس خير دليل على صحة هذه الدعوى التى ذهبنا إليها .

---

(١) يقول المقريزى : « لم تكن المدارس معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة ؛ فأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة أهل نيسابور ، فبنيت بها البيهقية » . الخطط : ٢ : ٣٦٣ .

(٢) يقول المقريزى : « وأول مدرسة قرر بهـا للعلماء معاليم هى النظامية ، وقد تم بناؤها سنة ٤٥٩ » . الخطط : ٢ : ٣٦٣ .

(٣) وبنيت أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ هـ ، وعلى حائطها تاريخ سنة ٥١٧ ،وتسمى بالزجاجية . بناها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عندئذ ، ولما أراد بناءها لم يمكنه أهلها أول الأمر لأن الغالب عليهم حينئذ كان التشيع . انظر الدر المنتخب لابن الشحنة .

ذلك أن مواد الدراسة فى هذه الحقبة كانت تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعاً لاختلاف أعمار الطلاب من جهة ولاختلاف المذاهب التى أنشئت من أجلها ، ولكنها مع هذا كانت تتفق جميعاً فى أمر واحد هو تجنب الدراسة الفلسفية والمنطقية . ولعل ذلك يرجع إلى أن المذهب الشّيعيّ الاسماعيليّ بصفة خاصة كان يعتمد فى دعايته ، السرية والعلنية ، إلى جانب العاطفة الروحية ، على الجدل المنطقى وعلى الأسس الفلسفية والرّياضية إلى حد كبير . وبهذا كانت المواد التي تدرس فى معظم مدارس الشام ومصر فى العصر الذى نتعرض له تتركز حول القرآن والحديث والمذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة . وكان اختلاف هذه المذاهب فى بعض المسائل الفرعية سببا فى تجميع هذه المسائل الخلافية فى دراسات خاصة ، عرفت باسم « علم الخلاف » ، وقد برع فيها كثير من علماء هذا العصر وبخاصة من علماء الشافعية .

وفى « رحلة » ابن جبير ، وفى غيرها ، نجد حديثاً عن المدارس التى أنشئت للصبيان خاصة ، ويسميها ابن جبير أحيانا بالمكاتب . وهدف هذه المدارس أن يحفظ بها الصبيان القرآن الكريم ، تلقينا ، أما القراءة والكتابة فكانت تعلم للصبيان فى دراسة الشعر والأدب التى كانت تعتبر فى هذه المرحلة مواد مساعدة ، وإنما كان القرآن يعلم تلقينا صيانة له عن التحريف ، والتصحيف . وكانت المساجد ، كما يقول ابن جبير ، مكاناً آخر لتعليم القرآن لهؤلاء الصبيان الذين كانوا يفدون إلى المساجد لهذا الغرض . وكان لهؤلاء التلاميذ ، ولمقرئيهم مرتبات خاصة يستحقونها فى مقابل تدريس القرآن ودراسته(١) .

---

(١) يقول ابن جبير : « وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم الى سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن . وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة . وأهل القدرة من الآباء ينزهون أبناءهم عن أخذها » . ويقول « وتعليم القرآن للصبيان تلقين ويعلمون الخط فى الاشعار ونحوها » . الرحلة : ٢٧٣ .

وكانت دراسة القراءات المختلفة للقرآن تأتى فى المرحلة التالية من الأهمية بالنسبة لحفظه حتى إن كثيراً من العلماء اشتهروا بين رجال هذا العصر بإتقانهم لها . ومن هؤلاء علم الدين السّخاوى (المتوفى سنة ٦٤٣) الذى اشتهر بها حتى كان الناس يتجمعون حوله ليقرءوا القرآن عليه بقراءته فى المسجد وفى الطريق بينه وبين منزله بسفح جبل قاسيون « فلا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد أمد طويل[1] » . وفى كتب التراجم التى تتحدث عن الشخصيات العلمية لهذا العصر كثير من أمثال الشيخ السخاوى .

ويجىء بعد القرآن وقراءاته علم الحديث ورجاله . وقد ظفر هذا العلم بمؤسسات خاصة أخذ كل منها اسم « دار الحديث » تمييزا لها من بقية المدارس . وأول دار للحديث بدمشق أسست أيام السلطان نور الدين محمود ثم تبع من جاء بعده مثاله ، ومن هؤلاء صلاح الدين الأيوبى ، والملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى والملك الصالح نجم الدّين أيوب .

ويلى هاتين المادتين الرئيسيتين فى الأهمية الدراسات الفقهية بمذاهبها الأربعة الرئيسية . أما قواعد اللغة العربية والدراسات الأدبية والتاريخية فلم تكن إلا من المواد المساعدة التى تمهد للدراسات الدينية العميقة التى تتمثل فى دراسة القرآن وقراءاته والحديث ورجاله ثم فى دراسة الفقه ومسائل الخلاف .

ومن بين المذاهب الفقهية الأربعة يحتل مذهب الشافعى مكان الصدارة ، وبخاصة فى عصر الأيوبيين وذلك رغم أن نور الدّين محمودا ، الذى بدأ الاهتمام الجدىّ بالنشاط العلمى السّنّى ، كان يعتنق مذهب الحنفية . وفى تتبعنا للنشاط العلمى الذى اتخذ طريقه من الشام إلى مصر فى أواخر عهد نور الدّين نجده يصطبغ بالصبغة الشافعية ، فقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة وعين الشيخ صدر الدين عبدالله بن درباس

---

(١) وفيات الأعيان : ١ : ٤٣٤ — ٤٣٥ .

الشافعي فى منصب قاضى القضاة ، وعين هذا الشيخ بدوره نوابه فى الأقسام الإدارية بمصر من رجال الفقة الشافعي[1] . ثم لم يلبث صلاح الدين أن اتخذ خطوة أخرى فى هذا الصدد عندما أسس مدرسة للشافعية بجوار قبة الإمام الشافعي وأتبعها بأخوات لها فى جهات أخرى . ومن ثـمّ لم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل[2] .

ومنذ بدأ الاهتمام فى الشام بإنشاء المدارس فى عهد نور الدين محمود أقبل أصحابه وأمراء جيشه على التنافس فى إنشائها ، وتابعهم على ذلك أصحاب الشام ومصر ، ومن اتصل بهم ، فى عصر الدولة الأيوبية . وكانت هذه المدارس موزّعة بين المذاهب الأربعة الرئيسية وإن اختلف الإقبال عليها من مذهب إلى آخر ، فكان مذهب الشافعي فى مرتبة الصدارة ، يليه مذهب أبى حنيفة ، ثم المذهب المالكى ، بينما كان لمذهب ابن حنبل المكانة الأخيرة إذ لم يقبل كثير من السّلاطين أو الأمراء أو العلماء على تشجيعه بدرجة كافية ، بل كان بعضهم يقاوم انتشاره ونشاط علمائه ويؤيد أتباع المدرسة الشّافعية فى معاداتهم له . ولعل السّر فى هذا أن رجال المذهب الحنبلى كانوا يحاولون فى هذه الفترة النظرة إلى المسائل الشرعية نظرة تحليليّة تعليليّة ويردون شبهات المناظرين من المناطقة بحجج جدليّة مشابهة تمشّيا معهم فى أسلوب مناظرتهم ، بينما كان الشافعية ، بزعامة إمامهم الأكبر ابن عساكر المحدث ، يلجئون إلى الحديث دائما ويشككون فى عقيدة الحنابلة وفى مقاصدهم .

ولعل السر فى تقدم الشافعية على الحنفية كذلك أن نور الدّين الحنفيّ المذهب وقف من المذاهب الأربعة موقفا محايدا وشجع العلماء جميعا على مواصلة جهودهم العلمية ، ووجه كثيرا من جهده وماله لدراسة الحديث

(1) يقول المقريزى : « فلم يستنبئ عنه فى أقاليم مصر إلا من كان شافعى المذهب ، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب الشافعى ومالك » . الخطط : ٢ : ٣٤٣ .

(2) الخطط : ٢ : ٣٤٣ .

خاصة فأنشأ له مدرسة خاصة عرفت باسم دار الحديث النُّورية، كما قدم ابن عساكر المحدث الشافعي الكبير في مجلسه على سائر الأمراء والعلماء حتى كان ابن عساكر يضرب المثل بجلال مجلس نور الدّين ووقاره وتعظيمه للعلم والعلماء. ثم جاء بعد نور الدّين خلفاؤه الذين حكموا مصر والشام باسم الأمراء الأيوبيين ومعظمهم من الشافعية المتعصبين لمذهبهم؛ وفي مقدمة هؤلاء صلاح الدين الأيوبي، وأخوه الملك العادل سيف الدّين، ثم الملك الكامل موسى بن الملك العادل. ومما يدل على موقف الأيوبيين من الشافعية تأييدا ومناصرة أن أحد علماء الحنفية كتب كتابا في الفقه سماه «النّوري في شرح القُدوري»، وتعرّض فيه لبعض رجال الحديث من الشافعية، وبلغ خبر الكتاب صلاح الدّين فاستدعى مؤلفه يوم جمعة في مسجد دمشق وطلب منه كتابه وأمر «بغسله» في ميضاة المسجد[1]. ودليل آخر أن المعظم عيسى صاحب دمشق، ابن الملك العادل، اعتنق المذهب الحنفي واهتم بدراسته والتخصص فيه، فبلغ أمره والده الذي حاول أن يسترده إلى مذهب الشافعي، فغضب المعظم وكلم أباه ومن حضر مجلسه من العلماء بلهجة يتحدث أبو المحاسن، صاحب النجوم الزاهرة، عنها، بأن السكوت عن ذكرها أليق[2]. وذكر مؤلف «شفاء القلوب» أن مما قاله المعظم لأبيه حينئذ «أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم».

ومما يدل على أن مذهب ابن حنبل كان لا يجد تعضيدا كافيـــا من الحكوميين أو من العلماء أن أبا شامة مدح أستاذه زين الأمناء ابن عساكر بأنه «كان لا يمرّ قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا بسببهم له». ويعلل أبو شامة هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذي كان متبادلا بين الفريقين، حتى إن زكي الدين بن رواحة أنشأ

---

(١) مؤلف هذا الكتاب الشيخ ابن أبي اليمش. انظر البستان الجامع لتواريخ الزمان في حوادث سنة ٥٧٨ هـ.

(٢) النجوم الزاهرة: ٦ : ٢١١.

مدرستين فى حلب ودمشق وأباح الدراسة فيهما لكل من رغب الاستزادة فى العلم على « ألا يدخلهما مسيحى أو يهودى أو حنبلى[٣] » .

ولكن سيطرة الشافعية والحنفية على الحياة العلمية لم يمنعا تطور مذهبي المالكية والحنبلية ، بل شجعتهما هذه السيطرة على المناضلة لمحاولة التقدم والرقى ، فنجحا إلى حد كبير ، وأمكنهما بذلك تقنين بعض قواعد الفقه الإسلامى المتعلقة بنظم الحكم السياسية فيما بعد ، وبخاصة جهود الفقيه والمصلح الاجتماعى الإمام ابن تيمية[٤] .

وكان لدراسة الطب فى هذه المرحلة نصيب ملحوظ فكان الطلاب ينقلون دروسه النظرية ويقومون بتمريناتهم العملية فى البيمارستانات حيث كان المرضى يعالجون من غير أجر وكان البيمارستان النورى بدمشق فى مقدمة هذه المؤسسات الصحية العلمية نشاطا فى هذه الحقبة ، ومن بعده بيمارستان صرخد ، ثم بيمارستان القاهرة . ومن أظهر أطباء هذا العصر ابن أبى أصيبعة الذى تلقى دراسته العلمية فى صرخد والقاهرة وترك كتابا خاصا فى طبقات الأطباء سماه « عيون الأنباء » .

* * *

ويمكن أن نقول إن هذا النشاط العلمى يدين بوجوده لعوامل ثلاثة متعاونة ، أولها كثرة المدارس وتنوعها ، وثانيها الهيئة الحاكمة من سلاطين وأمراء ، وأتباع للأمراء أو السلاطين ، وسيدات الأسر الحاكمة ، وثالثها جماعة العلماء .

وقد تحدثنا من قبل عن العامل الأول .

* * *

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات .

(٤) انظر :

Laoust (H.); Essai sur les Doctrines Socials et Politique de Taki-ad-din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

أما عن العامل الثانى فإننا نجد أن رجال الحكم والسلطة ومن اتصل بهم ، كانوا يتنافسون فى إنشاء المدارس ، وبعضهم كان يبادر إلى هذا فور توليه منصبه الجديد ، بجعله عربونا لدى قومه على حسن السّياسة التى سيتبعها فى إدارة شئونهم ورعاية صوالحهم . ولسيّدات هذا العصر فضل كبير فى تأسيس الكثير من المدارس ، ونذكر منهم ، على سبيل المثال ، الخاتون عصمة الدّين زوجة السلطان نور الدّين محمود ثم ، من بعده ، زوجة السّلطان صلاح الدّين يوسف بن أيّوب ، فقد أنشأت مدرسة فخمة فى دمشق عرفت باسم المدرسة العصميّة . ومن أتباع السلاطين نذكر قايماز صارم الدّين ، أحد مماليك السلطان صلاح الدين ، الذى أنشأ مدرسة باسمه بجوار منزله ، كما أنشأ عدة ربط للصوفية فى دمشق وفى غيرها من مدن الشام . ومن العلماء نذكر القاضى شرف الدين بن أبى عصرون الذى أنشأ مدرسة باسمه تواجه منزله بدمشق أيضا ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الذى أنشأ مدرسة فى القاهرة للشافعية والمالكية وألحق بها مكتبة بلغت عدة كتبها مائة ألف كتاب .

وفى كتاب الدّارس فى تاريخ المدارس للنّعيمى ، وفى كتب التراجم كذلك ، أمثلة لا تحصى للتدليل على هذه القضية .

ولم يقتصر اهتمام الهيئة الحاكمة ، ومن اتصل بها ، بحركة الإحياء العلمى على مجرد إنشاء المدارس وإنما كانوا يتخيرون لهذه المدارس أفضل الأساتذة وأتقاهم وأكثرهم قبولا لدى المتعلمين عامة ، بل كانت بعض المدارس تنشأ خاصة لعالم بعينه اشتهر بعلمه أو بمكانته بين الناس . فقد أنشأ ناصر الدين القيمرى مدرسة خاصة للأستاذ على بن محمود الكردى ، وقرر عند إنشائها أن يتولى شئونها بعد وفاة الشيخ الكردى أولاده وذريته . ومن قبل أنشأ السلطان نور الدّين محمود دار الحديث النّورية للحافظ أبى القاسم هبة الله بن عساكر الكبير محدث دمشق (الذى توفى سنة ٥٧١ هـ) .

وإنشاء مدرسة ما كان يعنى فى نفس الوقت تخصيص أوقاف بعينها يصرف إيرادها فى إدارة هذه المدرسة وفى دفع مرتبات المدرسين والمعيدين وفى حاجات الطلاب الذين كانوا فى أغلب الاحيان يقيمون بالمدرسة ويتغذون فيها ويحصلون منها على أدوات الكتابة والدرس ، بل كان من بين العلماء والطلبة من يتزوج ويقيم مع زوجه وأسرته فى المدرسة التى التحق بها مدرسا أو طالبا . ومما يدل على وفرة الأوقاف المخصصة للمدارس ، ما ذكره ابن جبير فى « الرحلة » عن مدينة دمشق التى استغرقت الأوقاف معظم أسواقها ومنشآتها ، وتوزعتها المساجد والمدارس والرّبط . وفى وصفه لإحدى المدارس الحنفيّة بحلب يقول : « ويتصل به (بجامع قلعة حلب) من الجانب الغربى مدرسة للحنفيّة تناسب الجامع حسنا وإتقانَ صنعة ، فيها فى الحسن روضة تجاور أخرى ؛ وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة . ومن أطرف ما يلحظ فيها أنّ جدارها القبلى مُفَتَّح كلّه بيوتا وغرفا لها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً ، فحصل لكلٍّ من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها ، فيمدّ الساكن فيها يده ، ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة[1] » .

ولم يقتصر مورد هذه المدارس على الأوقاف الكثيرة التى كانت تخصص لها ، بل كان للعلماء إقطاعات خاصة يمنحها لهم الأمراء ومرتبات تصرف لهم من خزانة الدولة . ويذكر القاضى الفاضل فى إحدى رسائله إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى . « أنّ أرزاق أرباب العمائم فى دولته ، إقطاعا وراتبا ، يتجاوز مائتى ألف دينار ، وربما وصل ثلثمائة ألف شهادة لله[2] » .

ومن مظاهر اهتمام الهيئة الحاكمة بالنشاط العلمى ما نقرؤه من أن السلاطين أنفسهم كانوا يهتمون بالأخذ بنصيب من الثقافة بالقدر الذى

(١) الرحلة : ٢٥٣ .
(٢) عيون الروضتين لأبى شامة . مخطوط بالمتحف البريطانى .

يمكنهم منه ظروفهم ، فكان صلاح الدّين يتلقى دروس الحديث من القاضى بهاء الدين بن شدّاد ، حتى وهو فى ميدان القتال ، كما حاول أن يحفظ القرآن الكريم عندما وجد فسحة من الوقت ، وبدأ هذا فعلا ، ولكننا لا نعلم مقدار نجاح هذه المحاولة . وفى الإسكندرية اعتاد أن يحضر دروس الحافظ السّلفى مع من يصحبه من أولاده ورجال دولته . واهتم العادل سيف الدّين بثقافة أولاده حتى قيل إن ابنه الكامل استطاع أن يحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء عصره عن جدارة واستحقاق[1] . كما قيل إنه استطاع أن يعلق على صحيح مسلم علميا « بكلام مليح[2] » . والكامل هذا هو الذى اعتاد أن يعقد ندوة علمية دورية مساء كل خميس يتناظر فيهـــا العلماء ويتجادلون ويشاركهم الكامل فى جدلهم ومناظراتهم[3] . أما المعظّم عيسى صاحب دمشق ، وشقيق الملك الكامل ، فقد درس الفقه على مذهب أبى حنيفة فى عناية وعمق ، وقد سبق أن ذكرنا رده على والده الملك العادل حينما حاول أن يصرفه إلى دراسة الفقه الشافعى . ويذكر سبط ابن الجوزى أن المعظم هذا اختار مجموعة من العلماء وكلّفهم بدراسة مسائل الفقه الحنفى لإفراد القضايا التى اختص بها الإمام أبو حنيفة وتلك التى تنسب إلى كل من صاحبيه محمد وأبى يوسف ، وكانت نتيجة هذه المحاولة كتابا جديدا فى الفقه الحنفى ، سمى التذكرة ، فى عشر مجلدات . فدرس المعظم هذا الكتاب بعناية ، وكتب بخط يده على كل مجلد منه عبارة تدل على أنه حفظ ما فيه جميعه . فلفت هذا نظر سبط ابن الجوزى فقال للمعظم : « إن أعظم العلماء حفظا لا يستطيع أن يدّعى أنه حفظ أكثر من كتاب القدورى ، وأنت تذكر أنك حفظت كتاب التذكرة جميعه !! إنى أخشى أن يؤخذ هذا عليك » . فتحداه المعظم عيسى أن يجمع له من أراد من العلماء ليختبروا حفظه لهذا الكتاب وقال : إن الألفاظ لاتهم ، وإنما الذى يهم هو ما تعنيه هذه

(١) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٨ .
(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٧ .
(٣) نفس المصدر : ٦ : ٢٣٢ .

الألفاظ[1] . واهتم المعظم كذلك بقواعد اللغة العربية فحفظ كتاب « المفصل » للزمخشرى ، وكان يشجع على الحفظ والدراسة بما يقدمه من مكافآت مالية فمن ذلك قوله : « من حفظ الجامع الكبير للكرمانى أعطيته مائة دينار ، ومن حفظ الإفصاح لأبى على فى النحو أعطيته مائتين» . فحفظهما جماعة ووفى لهم[2] . وعندما كتب سبط ابن الجوزى ترجمة المعظم عيسى فى حوادث سنة ٦٢٤ قال : « وفى هذه السنة ظهرت وفاة المعظم عيسى الملك الفقيه النحوى اللغوى . . . . . » الخ .

وللأمراء الأيوبيين نشاط آخر فى ميدان المعرفة ذلكم هو التأليف والتصنيف . فقد كتب المعظم عيسى كتابا فى الفقه الحنفى ، كما نظم مجموعة قيّمة من الأشعار جمعها فى ديوان خاص . وألف الناصر داود كتابه « الفوائد الحلبية فى الفرائد الناصرية » ، وخصص فيه فصلا تحدث فيه عن أصل الأسرة الأيوبية . وينقسم هذا الكتاب قسمين : أولها يشمل الرسائل والمكاتبات التى وجهها الناصر داود إلى بعض الشخصيات الرسمية وغيرها ، وثانيهما يحتوى الأشعار التى أنشأها مؤلّفة فى عشرة أبواب[3] . وكتب المنصور محمد صاحب حماة كتابا عن تاريخ حماة والشخصيات التى زارتها أو استقرت فيها ، ويقع هذا الكتاب فى جزءين ، وقد سماه صاحبه : « المضمار فى التواريخ[4] » .

وهكذا نجد أمراء الأيوبيين يسهمون فى حركة الإحياء العلمى بطريق مباشرة بالتأليف والدراسة إلى جانب ما ذكرناه من قبل من مظاهر اهتمامهم بهذه النهضة .

* * *

(١) مختصر مرآة الزمان : ٤٢٦ — ٤٢٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وهو مخطوط بالمتحف البريطانى برقم Brit. Mus., or 3027 .

(٤) أبو شامة : الذيل على الروضتين : ١٢٤ ، سبط ابن الجوزى : مختصر المرآة : ٤٠١ — ٤٠٢ .

ويتمثل العامل الثالث الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الحركة الإحيائية للعلوم ، فى جماعة العلماء . وطبعى أن تؤدى هذه الجهود العظيمة التى قامت بها الهيئة الحاكمة ومن اتصل بها فى إنشاء المدارس ، وتخصيص الأقاوف الغنية للإنفاق عليها ، والاهتمام بتشجيع الدراسات بوسائل مختلفة ، وتثقيف أمراء الأسرة الحاكمة ، والمساهمة فى حركة التأليف — طبعى أن يؤدى هذا كله إلى تكوين هيئة ضخمة من العلماء والأساتذة لسدّ حاجة المدارس المتزايدة إلى المدرسين والمثقفين . وطبعى كذلك أن تؤدى هذه الحركة التثقيفية الواسعة إلى تخريج عدد كبير من هؤلاء العلماء . ويتبين ضخامة عدد هذه الهيئة التعليمية من عبارة ذكرها العماد الكاتب فى مناسبة معينة عن مدينة دمشق عندما قال « إنّ الصّنىّ فرق فى أساتذة المدينة ستمائة دينار ، فخص كل عالم دينار واحد[1] » .

والواقع أن كتب التراجم التى تتعرض للحقبة التاريخية التى نتحدث عنها تدلنا على أن هذا العصر كان حافلا بالشخصيات العلمية العظيمة .

وتبين الدراسة الدقيقة لهذا العصر أن الظروف التى سيطرت على جوّه العام جعلت أساس الحكم فيه مستنداً إلى دعامتين قويتين متفاوتتين ، وإن اختلفت طبيعة كل منهما عن الأخرى ، إحداهما : طبقة أمراء الإقطاع ، وفيهم تركز النشاط الحربى وإدارة معظم شئون الإقطاعات والولايات المحلية فى ضوء السياسة العامة للدولة ، وكانوا يمدّون الخزانة العامة بما يفرض عليهم من أموال ؛ وثانيتهما طبقة العلماء ، وهؤلاء لم يكونوا أقل أهمية للدّولة من أمراء الإقطاع ، ذلك أنهم بنفوذهم المباشر على العامة وبثقة الرأى العام فيهم وتقديره لهم كانوا يستطيعون تعبئة القوى وتجميع الصفوف لتأييد الدولة أو لمناهضة الأمراء الذين ينحرفون عن الطريق السّوى فى إدارة شئون إمارتهم . ولم يقتصر أثرهم فى استقرار الأمور أو فى اضطرابها على تأثيرهم فى الرأى العام ، وإنما كان لبعض الشخصيات القوية

---

(١) الفتح القدسى ، ٤٨١ — ٤٨٢ .

منهم أثر مباشر في قوة الدولة أو في الحد من جبروت السلاطين وطغيان الأمراء . فهذا هو القاضي عيسى الهكّاري يصحب جيوش أسد الدّين شيركوه، قائد نور الدين إلى مصر ، ويبقى فيها بعد تمام الفتح . وعند وفاة شيركوه ، الذي شغل منصب الوزارة للفاطميين نحو شهرين ، وقع الاختيار على ابن أخيه صلاح الدين ليتولى الوزارة بعده، كما تقرر أن يقود جيوش نور الدين بمصر ؛ فغضب كثير من قواد الجيش وأمرائه الذين كانوا أسنّ من صلاح الدين وأقدم منه صلة بنور الدين ، وفي هؤلاء الثائرين شهاب الدين الحارمي خال الوزير الجديد ؛ فتقدم القاضي الهكّاري لعلاج الموقف بحكمة وسياسة ، ونجح في جمع الكلمة حول صلاح الدين فتولى المنصبين جميعاً ، واكتفى من بقي على معارضته لصلاح الدين بالعودة إلى الشام . وواصل الهكاري بعد ذلك جهوده لخدمة صلاح الدين وصحبه في إدارة شئون مصر وصحبه في المعارك حتى مات في مخيّمه قريباً من قلعة الخرّوبة ، المطلة على سواحل عكا ، سنة ٥٨٥ هـ . ومن علماء الشام كان الإمام الفندلاوي يتقدم صفوف القتال ضد الصّليبيّين ومات في ميدان المعركة . وكان الشيخ عبد الله اليونيني الحنبلي يخرج للحرب مع المجاهدين بقوسه الذي يزن ثمانين رطلا ، ويقول المترجمون لحياته إنه لم يتخلف عن معركة واحدة .

وفي الميدان الإداري قام العلماء بنصيب كبير لخدمة الدولة . فها نحن أولاء نجد القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين يوسف بن شداد يسوسون البلاد لصلاح الدين الأيوبي ويتولون أهم المناصب الحكومية في عهده ، حتى كان القاضي الفاضل يده اليمنى في ميادين السياسة والحرب والاقتصاد والإدارة ، بل كان مستشاره الأول في شئونه العائلية الخاصة . وابن الأثير الجزري كذلك يتولى الوزارة للملك الأفضل ، ابن صلاح الدين ، صاحب دمشق ؛ وصفيّ الدّين بن شكر يتولاها للملك العادل ولابنه الملك الكامل كذلك . وفي مناسبة معينة يقرر نور الدين محمود إنشاء مسجد كبير في حلب

فيعهد بالإشراف على عمارته وبالإنفاق عليه من خزانة السلطان إلى الشيخ عمر الملا". ويعترض فريق من رجال نور الدين، من المدنيين والعسكريين، على هذا الاختيار، فللشيخ ميدانه الذى لا ينازعه فيه أحد وهو ميدان العلم والقيادة الدينية، أما الاشراف على العمارة والصرف فليس من اختصاصه ولا هو فى طاقته؛ فيرد نور الدين اعتراضهم بأن الشيخ يخاف الله ولهذا فإن نقود المسجد لديه فى أمان وحسن رعاية، لن يلحقها اختلاس أو انتقاص.

وهكذا نجد العلماء لا يقصرون جهودهم على ميادين العلم وإنما يؤكدون نفوذهم فى الإدارة وفى السياسة وفى الحرب بقوة شخصيتهم وبقيادتهم الموجهة للرأى العام. وقد توصل «لاوست» بدراسته لموقفهم هذا إلى أن نفوذهم كان يتزايد بالتدريج فى عصر الأيوبيين فمهد هذا لسيطرتهم المتحكمة أيام المماليك، ومن مظاهر سيطرتهم عندئذ أن كل رسالة سياسية إلى الفرنج أو إلى بركة خان كانت تشمل واحدا من العلماء على الأقل. ويذكر «لاوست» كذلك أن ابن تيمية أحس بخطورة هذا الموقف فحاول بدراسته الإصلاحية الاجتماعية أن يخلص الإدارة الحكومية من الأمراء المتجبرين ومن العلماء الذين شاركوهم فى هذه الأرستقراطية الحكومية وأن يخضع الجميع للقانون الإسلامى الاجتماعى الذى يصبح العلماء فى ظله فى مكانة المرشدين فقط(١).

على أن انصراف كثير من العلماء، فى هذا العصر، إلى شئون الإدارة لم يصرفهم، وغيرهم من بقية العلماء عن ميدان المعرفة الذى تخصصوا فيه بل إنهم كانوا يستغلونه أحياناً لإصلاح شئون الدولة والحكم بطريق مباشرة تارة وبغير ذلك تارات أخرى. فقد ألف ابن شداد كتابه «فضائل الجهاد» للسلطان صلاح الدين الأيوبى، وجمع فيه الأحاديث التى تحث على الحرب وجهاد الكفار، يشجعه بذلك على موصلة حربه ضد الصليبيين حتى ينجح

---

(١) Laoust (H.), Essai sur les Doctrines Sociale et Politique de Taki-d-din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

فى طردهم نهائيا من بلاد الشام . وألف ابن الأثير ، صاحب الكامل ، كتابه « تاريخ أتابكة الموصل » وأهداه إلى السلطان الصغير القاهر مسعود صاحب الموصل تذكيراً له بالأمجاد التى كانت لآبائه أمراء الموصل ، وحثا له على أن يعمل على سلوك سبيلهم . وألف أبو شامة « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » تمجيداً لنور الدين وصلاح الدين ، وتوجيها لأمراء عصره الذين فشا بينهم الخلف والشقاق ، حتى يقتدوا بسيرتهما ويعرضوا عما هم فيه من حروب ومنازعات فرقت كلمتهم وأطمعت أعداءهم وإنما خص أبو شامة نور الدين وصلاح الدين بالتأليف لأنهما « فى المتأخرين كالعمرين رضى الله عنهما فى المتقدّمين » فأفردهما فى كتاب « لعله يقف عليه من الملوك من يسلك فى ولايته ذلك السلوك . . . . . . فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون : نحن فى الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير . فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو فى عصرهم ، من بعض ملوك دهرهم[1] » .

وكان لبعض العلماء نفوذ شخصى لدى السلاطين والأمراء . ويكفينا هنا أن نذكر من الأمثلة الشيخ سبط ابن الجوزى فقد نجح فى حث الملك الأشرف موسى على حمل السلاح والتقدم بجيوشه إلى مصر لمساعدة صاحبها أخيه الملك الكامل ضد الصليبيين الذين هاجموا دمياط واستقروا بها سنة ٦١٨ هـ ؛ وكان المعظم عيسى صاحب دمشق وشقيق الملكين قد فشل فى جمع قوى هذين الملكين من قبل . أما الملك الأمجد الأيوبى صاحب بعلبك فكان يزور الشيخ عبد الله اليونينى الذى لم يكن يحفل باستقباله ولم يقم أبداً لتحيته ، بل كثيراً ما لامه على مظالمه وكان الأمجد يعتذر إليه ويعده بالإصلاح . وقد نجح الشيخ اليونينى هذا فى دعايته ضد القراطيس السود العادلية التى طرحت للتداول بدلا من الدراهم والدنانير فبطل العمل

(١) كتاب الروضتين : ١ : ٥ . نشر وتحقيق دكتور محمد حلمى محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة — ١٩٥٦ .

بها[1] . وكان المعظم عيسى صاحب دمشق يمشى من القلعة راجلا إلى دروس الإمام تاج الدين أبو اليمن الكندى تكريماً له ولعلمه ، وحدث أن دخل مرة على التاج ، فسكت الحاضرون ، فقال التاج : إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم . فقال المعظم : لا والله ، إنّما القراءة بالنّوبة فليتموا » . أما الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقد نقم على الصالح اسماعيل ، صاحب دمشق ، لاستعانته بالفرنج ضد منافسيه من أمراء الأيوبيين حتى إنه قدم لهم مدينة صيدا عربوناً لصداقته . فأسقط العز اسم الصالح اسماعيل من الخطبة يوم الجمعة ، وأيّده فى هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية . ثم لم يلبث عز الدين أن خرج عن دمشق إلى مصر فأقام بها حتى توفى سنة ٦٦٠ . وعند وفاته قال الظاهر بيبرس ، صاحبها : « اليوم استقر ملكى لى ؛ فلو أمر عز الدين فى شأنى الناس بما أراد لأطاعوه مبادرين » .

وكان للنساء نصيب فى النشاط العلمى فى هذا العصر أشرنا إلى بعضه فيما تقدم عندما ذكرنا أنهن كن ينشئن المدارس الخاصة للصبيان ولدراسة الحديث وللمذاهب الفقهية المختلفة . ونود هنا أن نذكر أنه ظهر من بين السيدات من اشتهرت بالتفوق فى فن معين من فنون المعرفة فها هى ذى شُهْدة الكاتبة تكتسب شهرة فائقة لتخصصها فى دراسة الحديث وعلومه حتى أصبحت تعد من كبار رواته وحفاظه ، وتلك أخرى اسمها ست الكتبة نعمة بنت على اهتمت بدراسة الحديث كذلك وتخصصت منه فى كتاب الشمائل للترمذى .

* * *

وفى الحديث عن مواد الدراسة ذكرنا أنها تركزت حول العلوم الدينية طبقا للمذهب السنى أما الدراسات اللغوية والعربية فكانت تعتبر مساعدة

(١) المذيل على الروضتين : ١٢٥ .

على تفهم العلوم الدينية ، ودراسة الأخبار أو التاريخ لم تكن أكثر من مادة ثقافية تكميلية ، ومع هذا فقد التمس دارسوها لها صلة قريبة أو بعيدة بالدراسات الدينية ، فهذا أبو شامة صاحب الروضتين قد أقبل على دراسة التاريخ في مرحلة متأخرة من حياته الدراسية بعد أن قضى جل عمره في اقتباس الفرائد الدينية . وهو إنما قرر أن يصرف إلى التاريخ بعض وقته « ليحوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى » .

أما المنهج التفصيلي للدراسة فكان يختلف بالنسبة لأعمار الدارسين . فصغار الطلاب أو المبتدئون كانو يحفظون القرآن ويدرسون قراءاته المختلفة . ويتعلمون الشعر وأيام العرب وأخبارهم مستعينين بها على تعلم الكتابة ، ذلك لأنهم كانوا يحفظون القرآن تلقينا صيانة لكلام الله عن التصحيف والتحريف على يد هؤلاء الصبيان الصغار . وطريقة الإملاء والاستماع في بقية المواد كانت مفضلة على طريقة النقل في هذه الحقبة ، وبخاصة في دراسة الحديث ، ذلك أن طريقة النقل والنسخ كانت تؤدى أيضاً إلى التصحيف والتحريف . وفى ذلك يقول ابن عساكر ، محدث دمشق الأكبر ، مفضلا طريقة الاملاء :

ألا إن الحديث أجلّ علم　　　وأشرفه الأحاديث العوالى
وأنفع كلّ يوم منه عندى　　　وأحسنه الفوائد والأمالى
وإنّك لن ترى للعلم شيئاً　　　يحققه كأفواه الرجال
فكن ياصاح ذا حرص عليه　　　وخذه من الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترمى　　　من التصحيف بالداء العضال

ولهذا نجد معظم الإجازات العلمية التى كانت تمنح للطلبة من أساتذتهم مصدرة بعبارة : سمع منى ، أو قرأ علىّ ، أو نحو ذلك .

أما كبار الطلاب فقد رأينا أن العلم يُسّر لهم فى دور الحديث وفى

المدارس المختلفة بعد الفراغ من حفظ القرآن ودراسة قراءاته ، لكنهم لم يكونوا يقيدون بمنهج معيّن يتبعونه فى دراساتهم بعد اجتياز هذه المرحلة الأولى ، بل كانوا يختارون من المواد ما يناسبهم ومن الكتب ما يرغبون فيه وهم فى هذا الاختيار تأثروا إلى حد كبير بواحد من اثنين : أولهما شخصية من الشخصيات البارزة فى الميدان العلمى ، تميزت بتقواها وصلاحها وبعلمها الغزير وبتمكنها من المادة التى تخصصت فيها أو فى الكتاب الذى تعرضت لدرسه وشرحه ؛ وثانيها وفرة الأوقاف المخصصة لطلاب العلم فى مدرسة بعينها . ومعنى هذا أن الطالب كان لا يهتم ، إلا فى حالات قليلة ، باختيار علم بذاته ليتخصص فى دراسته لشغفه به أو لرغبته الخاصة فى الوقوف على أسراره . ولهذا أيضاً وجدنا العلماء فى هذه الحقبة يجمعون أنواعا مختلفة من الثقافة والمعرفة لا يتخصصون فى فن بعينه كما يتبين من كتب التراجم المختلفة .

لكنّ هذا لا يعنى أن التخصص العلمى قد انقطع تماما ، إذ أننا لا زلنا نجد من بين العلماء حينئذ بعض المتخصصين المبرزين ، ومنهم ابن عساكر الكبير الحافظ هبة الله محدث دمشق ، وتخصُّصُه دراسات الحديث ، وإن كان قد برع فى فقه الشافعى وكتب التاريخ . وعلم الدين السخاوى فى القراءات ، وزين الأمناء ابن عساكر فى فقه الشافعية ، وعبد الله اليونينى فى فقه الحنابلة ، وأبو اليمن تاج الدين الكندى فى علوم العربية .

ومن هؤلاء المتخصصين من اشتهر بإتقانه تدريس كتاب بعينه ، وهو نوع من المبالغة فى التخصص . ومن أمثلة هؤلاء علم الدين السخاوى المقرئ الذى تخصص فى قصيدة الشاطبي فشرحها ، ثم جاء أبو شامة الذى تتلمذ على السخاوى فزاد هذه القصيدة شرحا بعد أن لزم صحبة السخاوى زمنا طويلا . ومنهم كذلك ست الكتبة نعمة بنت على التى تخصصت فى كتاب الشمائل للترمذى ، وأبو اليمن تاج الدين الكندى الذى تخصص فى كتاب المفصل للزمخشرى .

ولعل السر فى قلة الانصراف إلى التخصص العلمى بصورة ملحوظة فى هذا العصر الذى نتحدث عنه أن الحركة العلمية بدأت ، واستمرت مدة طويلة ، قوية مندفعة متحمسة لمقاومة الدراسات الفلسفية والمنطقية التى كانت وسائل الدعاية الشيعية ، والاسماعيلية خاصة ، واستندت هذه الحركة القوية إلى الدراسات النقلية التى تعتمد على القرآن والحديث وعلى آراء أئمة الفقه القدامى الذين وضعوا أسس الدراسة السنية . ومن وراء هذه الحركة الأمراء والحكام ومن اتصل بهم يتنافسون فى إنشاء المدارس وفى تخصيص الأوقاف العظيمة الدخل للإنفاق على هذه المدارس وفى تقريب العلماء واستشارتهم فى شئون الدولة إدارة وسياسة وحربا واقتصادا .

محمد حلمى محمد أحمد